

مجد كبير طوته ظلمة كثفت ... ثم انجلت فإذا ما تحتها ورم
كروا بعزيمة حر جاء منتصراً ... لنفسه واستباحوا منك ما احترموا
فأنزلوك عن العرش الرفيع وما ... كانوا يريدونها لكنهم رغموا
تأبى الشريعة أن تبقيك حافظها ... وأنت بالعدو والإغواء متهم
فاليوم تعلم عقي من يخون ومن ... يطفى وتندم إذ لا ينفع الندم
هبطت من قمة الأجداد منحدرًا ... كصخرة حطها من شامق عرم
ففي هبوطك عاد الملك مرتفعاً ... وفيهلاكك كل الخلق قد سلموا
كانت بإقبالك الأقدار عابسة ... فأصبحت بعد ما أدبرت تتسم

دمشق: ف

السلطان عبد الحميد المخلوع

قلما جاء في الملوك من ترضيك أخلاقه وأعماله لضعف التربية الدينية والمدنية ولأن
الملك يسكر فيقتضي له عقل كبير يحسن به صاحبه التصرف ويراعي فيه حقوق الخالق
والخلاق. ولذا ندر في ملوك بني عثمان والملك متسلسل فيهم منذ زهاء ستة قرون من
تأهل بالفعل للجلوس على عرش السلطنة فقد رأيناهم وفيهم الأخرق والأحمق
والمتهك والمسرف على نفسه والسفاك ولكن لم يأت فيهم على التحقيق مثل السلطان
الخامس والثلاثين عبد الحميد الثاني.

نقول فيهم وما أخلقنا أن نقول في غيرهم من ملوك الإسلام بل وفي الأمم الأخرى
فقد تدبرنا تراجم ألوف من الملوك والعظماء ولم نشهد لعبد الحميد مثيلاً في أخلاقه
وأعماله. بل رأينا يشبه الناصر لدين الله العباسي بتجسسه وحرصه والحاكم بأمر الله
الفاطمي بهديانه وتلونه والحجاج بن يوسف الثقفي ببطشه وسفكه والسلطان إبراهيم

العثماني بسفامته وإسرافه. ومن جمع في شخصه هذه الصفات محمداً كان جديراً بأن يدعى طاغية الملوك والسلاطين.

تولى عبد الحميد زمام السلطنة وكيلاً عن أخيه مراد الخامس لمرض طراً على عقله وكتب على نفسه عهداً دفعه مدحت باشا ناشر أعلام الحرية في المملكة العثمانية ثم أرسل على ما يقال من أحرق دار مدحت باشا وحرق العهد في جملة ما حرق وأخذ يستجلب قلوب أهالي الأستانة مدة وكالته حتى اجتمع الصدر محمد رشدي باشا ومدحت باشا فقررا دعوة رجال الدولة إلى الباب العالي للنظر في توسيد السلطنة إلى عبد الحميد أصالةً فاجتمع نحو ألف شخص من الكبراء وقرروا أن جنون السلطان مراد مطبق لا يرجى أن يفيق منه فأفتى شيخ الإسلام بحل إمامته وببيع لعبد الحميد الذي أظهر أولاً بأنه يميل إلى الحكم الدستوري ومنح القانون الأساسي ثم سلبه وأقل مجلس الأمة وأتعب مدحت باشا في معاناة أخلاقه وكان أول عهد نكته معه أنه أخذ على نفسه أن يعين لرئاسة كتاب امين نامق كمال بك الكاتب الشاعر الشهير وضياء بك رئيس المابينة فعين غيرهما ثم أخذ يلمس الدسائس ونفى مدحت باشا ثم أرسل به إلى الطائف فسجن في حبسها مدة ثم أمر بخرقه.

وأخذ السلطان يكثر من التصيق على أخيه السلطان مراد وعلى سائر أفراد الأسرة السلطانية ولاسيما ولي عهد السلطنة السلطان الجديد محمد خان الخامس الحالي ويشرد كل من عرف بالإنكار عليه من الوزراء والعظماء فألقى بذلك الرهبة في نفوس قواد المملكة ورجال سياستها فأصبحوا يسرون على رغباته وكل من خالفها ولو فيسره أقصاه وسجنه وعذبه وكلما مضت سنة على ملكه يزداد مراناً على هذه الفعال ويبالغ في الاحتياط لنفسه وغدا يتولى كل أمر بذاته ويعد أرباب الوجدان من رجال الدولة ويعيى عنهم بأناس ممن يصطنعهم وما يصطنع إلا الأسافل من كل

جنس من أجناس الدولة لعلمه بأنهم يقادون بكل مبدأ في سبيل نصرته على الباطل حتى آلت أزمة الدولة في العهد الأخير إلى أيدي السفلة من أعوانه الجهلاء الطغاة إلا قليلاً.

وإذ كان مفطوراً على الطمع ويحسب أن المال يعمل كل شيء أخذ يملك الأملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلاطين فكان كلما سمع بأن في إقليم كذا أراضي من أملاك الدولة يمتال لأخذها بلا ثمن إن كانت من الأملاك الأميرية أو بثمن طفيف إن كانت للأفراد ثم ألف الشركة الخيرية لتسير السفن في موانئ الأستانة وشركة أخرى لحسابه بين البصرة وبغداد وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع ومعامل لصنع السجاد وغيره وضارب بالأوراق المالية وهكذا أصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً لا يهتم بشيء من أمر الملك إلا إذا كان تقريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثرة ضاقت بما خزينة الأمة وكلهم أمتاؤه إن أخطأ وأفلهم الأجر وإن أحسنوا فحدث ما شئت أن تحدث عما ينهال عليهم من إنعامه وإحسانه. حتى لقد قلَّ جداً في عماله من لم يتجسس له لاسيما بعد أن رأى الناس أن الترقى في الوظائف لا يتأتى في الأغلب إلا من طريق الجاسوسية.

وهذا استنزول غضب عقلاء الأمة وأحرارها وكان كلما بالغ في الضغط عليهم واشتد في إرهابهم واعناقهم ينمو عددهم ينمو الميل إلى العلم. فكانت مدارس الدولة ولاسيما العالية منها على شدة المراقبة عليها لا يتصور العقل أكثر منها وعلى إصدار إراداته تترى لجعل المعارف صورية لا حقيقية — منعت تلك الشعلة التي قضت على استبداده الذي لم يكدهعهد له مثل في تاريخ الأمم فزحزح المتخرجون فيها أسس الحكومة المطلقة المدمرة وأقاموا مكانها على التقوى أسس الحكومة المقيدة المعمرة.

عرف عبد الحميد أن بالمدارس والمطبوعات تستنير العقول فيقل الراضون عن حكمه فأنشأ يضيق الخناق على المدارس حتى حظر أن يعلم فيها التاريخ وعلوم السياسة والاجتماع لأنها ترقى العقل وتلقح الأذهان وتدعو الأمة إلى سبل الرقي والأمان. ورات المطبوعات منه ومن أعوانه الجهلاء خصوماً يكفي في نعتهم أنهم أعداء كل فكر وارتقاء وتجديد حتى أصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثكنين الأخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزهد وتلفيق أو أماديح كاذبة له ولأرباب المظاهر أو أموراً عادية لا ترقى عقلاً ولا تزيل جهلاً. ووصلت المراقبة على المطبوعات في أيامه إلى درجة من الهزل لم تصل إليها في أمة مغلوبة على أمرها فرفعت من المعاجم كثير من الألفاظ كالعدل والمساواة والقانون الأساسي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل وأصبحت الجرائد أبواقاً تضرب بتقديسه وتأليهه والعياذ بالله أو تكتب في التافه من الأخبار والأفكار. جرى كل هذا برأيه ورضاه لا كما يزعم بعض من يريدون أن يتفحلوا له الأعذار الباردة من أنها كانت من عماله ووزرائه وهو لا علم له بما يأتون.

كثرت في الأيام الحميدية أنواع المظالم وأصبح كلما طال عهده يشد في إعنات من يخالف له فكراً أو يعرض له في الإصلاح أمراً حتى صار بعض العقلاء من عماله يتظاهرون بالبله أو يقطعون عن الخدمة لأن سلطانهم لا يرضيه إلا أن يكونوا على قدمه في الظلم وارتكاب المنكرات. ولقد نصح به بعض سفراء الدول منذ بضع سنين أن يكف من شرور بعض العمال لأن استرسالهم فيها مما يسقط شأن المملكة ويضر بمستقبلها فقام لهم وماذا أعمل مع من ذكرتم وهم يجونني ويتفانون في خدمتي أي إنهم في حلّ من عمل ما أرادوا من العسف في الأمة ما داموا يظهرون له الحب ويخدمون أغراضه.

اشتهر عبد الحميد بالحق الشديد والحرص الأكيد والحدة المتأهية والاحتياي الذي ينطلي على ضعاف العقول فيقولون أنه الدهاء والحكمة.

وكانت هذه الأخلاق بادية عليه قبل أن يلي أمر الأمر حتى قال نابوليون الثالث فيه يوم رآه مع عمه السلطان عبد العزيز في باريس أن هذا الفتى سيجيء منه داهية باقعة فما هو إلا أن قبض الله له الجلوس على سرير آل عثمان حتى صحت فراسة نابوليون فيه بل برز في هذا المضمار.

كان السلطان عبد الحميد يحب ابنه مراداً أكثر من عبد الحميد لأن هذا كان يبدو عليه الحبث منذ الصغر ولما ترعرع شرع يتجسس لعمه السلطان عبد العزيز على أخوته وآل بيته لينال منه الإحسان ويفعلو فيكشف عورات أخيه ماد خاصة وكانت تقاريره للسلطان عبد العزيز متصلة كتقارير جواسيسه في عهد سلطنته ولطالما كدره السلطان عبد العزيز على تشاغله بالسفاسف ويكفي في بيان الفرق بين أخلاق السلطان مراد وأخلاق السلطان عبد الحميد أن الأول كان يعنى في صباه بالشعر والموسيقى ودرس مدينة أوروبا وتاريخها على حين كان أخوه لا همّ له إلا درس السحر والطلسمات وضرب الندل وأخذ الفأل ويتقرب لذلك من المشايخ والبله والدجالين.

مضى ثلث قرن على الأمة العثمانية وهي تفتى في سلطاتها فناء جنون لا فناء عقل وكنت إذا خلوت حتى بخاصته وصنائه يحدثونك من تلاعبه وأخلاقه ما تسأل الله معه السلامة وتسجل على فساد أخلاقنا أكثر من فساد أحكامنا وأعمالنا وكل منهم يورد لك من أسباب اضطراره إلى الصبر على هذه الخدمة ما هو العجب العجاب.

فبالإسراف في مال الأمة استمال عبد الحميد قلوب الأغمار ممن تزيوا بزبي العلماء وهم جاهلون فكانوا يكذبون على الله والناس ويذكرون لهم من صفات سلطاتهم ما هو الزور البحت وإذا فتح النصفون أفواههم بالنقد أسكتوهم وحرموها إنكار المنكر

عليهم. وبالجواسيس اطلع على الدقيق والجليل من نيات الأمة وما كان يهتم إلا للأمر الصغيرة ولاسيما ما كان منها معلقاً بشخصه أما عمران البلاد وترقية معارفها وصناعاتها وزراعتها وتجارتها فلم يكن لها قيد في سجل أعماله.

وكفى في عدم احتفاله بأمور الرعية وإصلاح البلاد أنه انسلخت عن جسم الدولة في أيامه المشؤومة بلغاريا والروم أيلي الشرقية ودوبروجه في رومانيا والجيل الأسود والبوسنة والمهرسك وانضمت بعض الألوية للصرب ولليونان تساليا وايروفارتا وفرنسا تونس ولروسيا القوقاس وباطوم وأردهان وقارص ونال الجيل الأسود استقلاله وانفصلت قبرص وكريت لو كادتا واحتل الإنكليز مصر وهكذا انفصل من جسم الدولة نحو ثلثها بعدد النفوس والعمران.

ماذا تعدد هذه الأمة من سينات الدور الحميدي وتزع سلطة الحكم من الباب العالي وكانت من قبل فيه على شيء من العقل والقانون وانتقالها إلى المايين يعث بمصاخ الأمة الخصيان والجواري والجواسيس والدجالون والمرتشون والمناقفون والمنطبعون بطابع السياسة الحميدية.

فقد كانت الوظائف والرتب والأوسمة ومظاهر التكريم تباع بالمزاد كما يباع العقار والدار ويقتنونها في الأغلب من لا يهمهم إلا حظوظ أنفسهم وإملاء جيورهم وبطونهم حتى هلكت البلاد ليغتنى عبد الحميد والمنفذون لرغائبه وافقر الفلاح والصانع وهما مادة حياة الوطن واغتنت تلك الطائفة الفاسدة من الموظفين الذين سماهم غلادستون كبير وزراء إنكلترا جماعة من اللصوص تألفوا في صورة حكومة.

ولكم كان عمال عبد الحميد سبياً في إهراق دماء الأبرياء وتزع روح الحياة الوطنية من الناس وما ننس لا ننس سياسة المايين في المذابح الأرمنية والحروب اليمانية والكربية وغيرها من الوقائع الأهمية التي ألقى بها السلطان الشقاق بين أبناء هذا

البيت الواحد وفرق مجتمع القلوب عملاً بالقاعدة الباردة فرق تسد ولو عقل جرى على قاعدة اعدل تسد.

نعم كانت المدارس منبعث تلك القوة التي قضت على السلطة الحميدية بل على السلطة الاستبدادية في السلطنة العثمانية. وناشئة الأمة الذين كان يحترهم السلطان المخلوع ويغويهم بالمال ويضعهم بالمراتب والرواتب هم الذين دبوا بسلطان العقل أسباب الانقلاب الأخير في المملكة وغلبوا سلطان الجهل فكان يوم ١٠ تموز الماضي مبدأ سعادة العثمانيين وتاج الأيام وغرة الشهور والأعوام.

كان الصدر محمود نديم باشا يقول للسلطان عبد العزيز أن بعض الوزراء يخوفونك بالأمة وما الأمة الأكمن تراهم يمشون هناك (وأشار إلى جماعة من فلاحى الأناضول) ومثلهم لا يميز ولا يعقل فاصنع ما بذلك فانهى الأمر بخلع ذاك السلطان وقتله. وكان أحمد عزت باشا العابد يحقر للسلطان عبد الحميد أمر الأمة ويزين له البطش ويقول له أن المسلمين لا يعرفون غيرك خليفة وسلطاناً ورباً صغيراً فاحكم فيهم بحكمك فهم عبيدك لا ينازعك في التصرف فيهم منازع الأحرار أفراد طائشون. صم أذنك عن سماع خيالاتهم ودعهم يعوون ولا يضر عواء الكلاب بالسحاب. أما حكومات أوروبا فأمرها إلى التفاضل إن اتحدت كلمتهن لأقبل لنا بدفعها وما دمن متخاذلات فنحن في مأمن. وهكذا جرى السلطان المخلوع في دوره الأخير على هذه السياسة الخرقاء فكانت سبباً في نزع السلطة الاستبدادية من يده يوم ١٠ تموز الماضي وانزاله عن العرش يوم ١٤ نيسان.

ينس الناس من الخلاص من جور هذا السلطان إلا بموته ولكن تلك النفوس الكبرية من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي التي احك معظم أعضائها بالأوربيين وبلادهم قطعة من أوروبا أثبت أن تضع ملك بني عثمان بالإهمال والتراكل فاضطرت عبد الحميد إلى

إعلان القانون الأساسي في الصيف الماضي مرغماً ولما لم تطب نفسه لما جرى وأنشأت تحدّثه بإعادة الدور السالف لتكون الأحكام طوعاً وأمره وفيه وهو الحاكم المتحكم في الأموال والأعراض والأرواح يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل أخذ يوقد نيران الفتنة بين الأمة ليقول لها وللأجانب أن العثمانيين لا يليق لحكمهم إلا الحكم الاستبدادي.

ثم احتال للتفريق بين عناصر الدولة أولاً وإغواء بعض الخونة من رجاله بالمال ليثروا دعوتهم فتألفت جمعيات عناصر بعد إعلان الحرية ولكل منها نزعاً خاصة. يريد الأرمين توسيع الاختصاص المأذونية أو الاستقلال النوعي بعبارة أخرى والعرب ينادون بأن الترك غمطوهم حقوقهم وهم يريدون أن يشاطروهم الوظائف أو يفصلون عن الدولة وبعض الأرناؤود يدعون إلى مثل دعوة الأرمين. ولما رأى السلطان أن الأمة انتبهت لرد هذه الترهات وقام العقلاء يحاربونها شرع يسلك سبيلاً آخر ويحرك عامة المسلمين باسم الدين بواسطة جمعية ألفها في الأستانة دعت نفسها بالجمعية الخمدية تطالب بالشريعة الإسلامية ولا تريد القانون الأساسي لأنه بزعمها مخالف للإسلام ومن قواعد الحرية والحرية ليست من شأن الدين الخمدي. وهكذا ألفت الجمعية فروع في الولايات فحج العامة باسم الدين وتربطهم بالسلطان وذلك على يد زعانف كان للمال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغرغاء.

كاد عبد الحميد لأتمه بتدبير الفتنة الخمدية بل بالفتنة العسكرية فعصت جنود الأستانة إلا قليلاً بما بذله لهم من الذهب الوهاج ولم ير أعوانه الذين أثاروا الجند واسطة لإضاعة رويتهم أحسن من إسكارهم فأسكروهم ليلة الفتنة وفرقوا عليهم الذهب الكثير الذي جمعه من دماء الفقير ليقوموا بالمطالبة بإعادة الشرع الخمدي أو يوقدوا نيران مذبحة عامة يقتل فيها أحرار الأمة أولاً ثم الأقرب فالأقرب من رجال الإصلاح

والتجديد ولو وفق عبد الحميد لاستعادة سلطته الاستبدادية وتمت له مكيدته الشيطانية لما هلك في هذه الفتنة الأهلية في أنحاء السلطنة أقل من مليوني رجل كما وقع في ثورة فرنسا الأولى.

ولكن الله أراد لهذه الأمة الخير وقبض لها من رجال الدستور والتفانين في الاحتفاظ به من كان إخلاصهم الداعي الأكبر في نجاحهم فقامت بعض ولايات الروم إبلي على ساق وقدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور وهب جند الفيلق الثاني والثالث أي أدرنة وسلايك — ومنهما انبعث جذوة الحرية أول مرة — وزحفا في جموع التطوعة على الأستانة بقيادة البطل المغوار محمود شوكت باشا الفاروقي البغدادي فاستوليا على المواقع الحربية في العاصمة في أسبوع وقبضوا على المنتفضين والعصاة من الجند المشاغب وخلعوا السلطان عبد الحميد مدبر تلك المكائد بفتوى من شيخ الإسلام أثبت عليه فيها قتل الأنفس البريئة ومخالفة الشرع وحرق كتب الإسلام والإسراف في مال الأمة وبايعوا باتفاق مجلس النواب والأعيان لولي عهده السلطان محمد الخامس وساقوا ذلك الذي عبث بمصلحة العثمانيين إلى قصر الأتني في ضاحية سلايك ليحري عليه ما جرى على كل سلطان مخلوع خان أمته ودولته بدون أن يلحقوا به إهانة. فحتى للدولة والأمة أن تدعو بدوام نصر الجيش العثماني المظفر لأنه كان سب حياتنا اليوم ولطالما كان هذا الجيش سب رفع هذه الدولة العلية كما كان في بعض الأدوار سب خفضها.

أعلن جيش الدستور الأحكام العرفية أي عطلت القوانين الموضوعة وجعلت العاصمة تحت الأحكام العسكرية ريثما يستتب الأمر لجيش الفاتح محمود شوكت باشا ويفتك بمن أضعوا دينهم وديناهم بمسالاة السلطان المخلوع على رعايته فشتق كثيرون ممن كان لهم ضلع في تشويش نظام الأمة وإهانة العامة باسم الشريعة وحكم على بعضهم

بالأشغال الشاقة وعلى البعض الآخر بالنفي وهكذا تمت الغلبة لكلمة الحق على الباطل وكتب البقاء للحكم النيابي في السلطنة آخر الدهر إن شاء الله.

فكرنا ملياً في أمر عبد الحميد وأردنا أن نصفه في الترجمة فما رأينا له مزية يذكر بها ويرحم. بلى وجدناه حسوداً يحسد حتى خصيانه وأشق خبر يتراعى إليه أن يعلم بأن في إحدى أطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه فيحتال عليه ليأتي به إلى الأستانة ليدفنه حياً فإن لم يقدر فلا أيسر عليه من التقول عليه وتزوير حيلة للانتقام منه والحط من كرامته. وكان إذا عزّ لا يلحق غبارهُ ثمود وفرعون وإذا ذلّ وذله يكون للأدنياء غالباً ينسى منزلته ومقامه. وكان يلذه جداً أن يشهد الشقاق مستحكماً بين حاشيته ويلقي بينهم العداوة والبغضاء. وفي أيامه كثر اختلاف النساء إلى قصره حاسرات مترجات بدعوى أنه خليفة وللخليفة أن ينظر إلى المحارم ولا حرج عليه وعليهن ولهذا اخترع لمن وسام الشفقة. ولعل بعض من درسوا الأخلاق الحميدية عن أمم يكتبون كتاباً مفصلاً فيها ليقراً الأخلاف عن الأسلاف ما فعلته في ذلك المخلوع قلة التربية والعلم وفساد الفطرة والله أعلم.

في سالانيك

لقد سمعوا من الوطن الأنياء ... فضجوا بالبكاء له حيا
 وناداهم لنصرته فقاموا ... جميعاً للدفاع مسلحين
 وتاروا من مراضهم أسوداً ... بصوت الاتحاد مزجربنا
 شباب كالصوارم في مضآء ... يرون وكالشموس منورينا
 سالانيك الفتاة حوت ثراءً ... يهيم فقضت عن الوطن الديونا
 لقد جمعوا الجموع فمن نصارى ... ومن هود هناك ومسلمينا
 فكانوا الجيش ألف من جنود ... مجندة ومن متطوعينا